البُعد الفطريّ في الثورة الحسينيّة -دراسة تحليليّة مقارنة-

الدكتور كمال لزّيق[1]

خلاصة المقالة:

تبحثُ هذه المقالةُ في طبيعة أهداف الثورة الحسينيّة العالميّة؛ بوصفها ثورةً إلهيّةً، وفي انسجامها مع أبعاد الفطرة الإنسانيّة في شعاراتها؛ بوصفها ثورةً إنسانيّةً تحاكي الوجدان والفطرة عند الإنسان بما هو إنسانٌ؛ مجرّدًا عن خصوصيّاته الوطنيّة والقوميّة والعرقيّة والإثنيّة، وتمايزها عن بقيّة الثورات العلمانيّة العالميّة الحديثة والمعاصرة.

وهذا لا يعني وجود تباينٍ كلّيٍّ بين الثورة الدينيّة والثورة العلمانيّة من حيث المنطلقات الفطريّة؛ فالإنسان بما هو إنسان: سواء الدينيّمنه والعلمانيّ، يطلب -بحسب بفطرته- الكمال في كلِّ شيءٍ؛ ولذا فهو يطلب العدل والحرّيّة والقدرة، ويرفض الظلم والاستعباد والضعف؛ فالفطرة أصيلة وذاتيّة في وجود النوع الإنسانيّ؛ بحيث لا تجد فردًا واحدًا في كلِّ المجموعة البشريّة يخالفها.

ولكنّ تمايز الثورة الحسينيّة عن الثورات العلمانيّة يكمن في مصداق كيفيّة طلبِ الكمال المبنيِّ على الرؤية الكونيّة لكلٍّ منهما؛ بحيث تتباين مع الثورات الأخرى في الأبعاد الآتية: الأُخرويّة مقابل الدنيويّة، الألوهة مقابل الأنسنة، والجماعة مقابل الفرد.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، ومعاون عميد كلّيّة الأديان والعلوم الإنسانيّة في جامعة المعارف، من لبنان.

كلمات مفتاحيّة:

الإمام الحسين عليه السلام، الثورة، الفطرة، العلمانيّة، الكمال، الرؤية الكونيّة، العدل، الحرّيّة.

مقدّمة:

إنّ مقاربة البُعد الفِطريّ في الثورة الحسينيّة، وتحديدًا في الشعارات التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام في ثورته، هي محاولة للإجابة عن تساؤلٍ يُطرَح حول ما يُميّز هذه الثورة عن غيرها من الثورات؛ إذ إنّ الثورات هي حركةٌ في التحوّلات الاجتماعية الخاضعة لإرادة الإنسان؛ نتيجة تراكم ممارسات السلطة السلبيّة، التي تنعكس على أحوال أفراد المجتمع؛ سواء على المستوى العقديّ، أم الاقتصاديّ، أم السياسيّ، أم غيرها من دواعي النهوض نحو الأفضل.

فهل تميّزت الثورة الحسينيّة عن غيرها من الثورات بنداءاتها أو شعاراتها للتغيير أو الخروج من الواقع المأزوم؟

كما إنّ السؤال عن البُعد الفِطريّ يستدعي تحديد هذا المصطلح، وما هي مدلولاته؛ لكي نكتشف إن كان ثمّة بُعدٌ فِطريٌّ في الثورة الحسينيّة؟ وفي حال الإيجاب، هل الأمر الفِطري هو بُعدٌ من أبعاد الثورة الحسينيّة يختصّ بها دون غيرها من الثورات؟ وفي حال السلب، ما هي-إذًا- خصوصيّة الثورة الحسينيّة وميزتها عن غيرها من الثورات؟

أولًا: الفِطرة الدينيّة ومظاهرها في النوع الإنسانيّ:

البحث في الفِطرة هو بحثٌ معرفيٌّ، يتّصل بشكل أو بآخر بالبحوث العقديّة والفلسفيّة، وهي من المسائل التي لها أصول في علم الكلام، لكنّ علماء الكلام المعاصرين طرحوها بتوجُّهات حديثة، فظهرت بصيغة مختلفة عمّا كانت عليه في السابق؛ ويُمكن القول: إنّ مسألة الفِطرة

هي من الموضوعات المشتركة بين عِلمَي الكلام الجديد والكلام القديم، باعتبارها من القضايا الكلاميّة الدائمة، على غرار القضايا الكلاميّة الأخرى؛ من قبيل: لغة الوحي، والشرّ، والجبر، والاختيار، والمعجزة، والإيمان، والعقل، والوحي، وغيرها من العناوين.

1. الفطرة الدينيّة:

يُقصد بالفِطرة -هنا- الفِطرة الدينيّة؛ أي الفِطرة التي تحدّثت عنها النصوص الدينيّة، وبالأخصّ النصوص القرآنيّة.قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]؛ وبالتالي، فالفِطرة الدينيّة هي فِطرة الله -تعالى- التي أوجدها في أعماق جميع أفراد النوع الإنسانيّ؛ المؤمن منهم وغير المؤمن، وهي الخِلْقة المتعالية على التبديل، الباقية في كينونة النوع الإنسانيّ قاطبةً، التي لا يشذّ عنها أحدٌ من أفراد هذا النوع، حتّى الّذين يختارون طريق الانحراف عن الصراط الربّانيّ القويم؛ فالفِطرة أمرٌ وجوديٌّ مُتحقّقٌ ومُتأصّل في النفس الإنسانيّة؛ سواء اختارت طريق التقوى أم طريق الفجور: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]، فسوّاها على الفِطرة التي لا تبديل لها، وألهمها حرّيّة الاختيار على الفجور والتقوى، اللّذين هما من صفات النفس، وليس الفِطرة؛ إذ الفِطرة لا تكون إلّا على الخير والتقوى.

فالفِطرة ليست من قبيل العلوم التي تحتشد في أذهاننا عَبْرَ آلاف المفاهيم والصور الذهنيّة التي تحاكي العالَم الخارجيّ المحيط بنا، كما إنّها ليست من قبيل الحالات الوجدانيّة التي تحاكي بعض الواقع؛ وبالتالي، فالفِطرة هي أمرٌ حقيقيٌّ سابقٌ على التجارب العلميّة المُكتَسَبة عند الإنسان؛ فليس ثمّة، في الفِطرة، معارف علميّة بديهيّة، بالمعنى الحصولي

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) سورة الشمس، الآيتان 8-9.

للمعارف؛ سواء قبل الاتّصال بالعالَم الخارجي[1]، أو بعد الاتّصال به[2].

وعليه، فإنّ الفِطرة الدينيّة تختلف عن الفِطرة العلميّة من عدّة جهات؛ هي:

- الجهة الأولى: إنّ الفِطرة الدينيّة هي من قبيل المعرفة الحضوريّة، في حين أنّ الفِطرة العلميّة هي ضربٌ من العلم الذهنيّ المفهوميّ؛ أي العلم الحصوليّ، والبديهيّ الفِطريّ على وجه الخصوص.

- الجهة الثانية: إنّ الفِطرة الدينيّة هي علمٌ بالقوّة والاستعداد، في مقابل الفِطرة العلميّة التي هي علمٌ بالفعل؛ والعلم الفِطريّ هو ما يُعبَّر عنه بالمفاهيم البديهيّة؛ مقابل المفاهيم النّظريّة في مجال التّصوّرات، كما يُعبَّر عنة بالقضايا البديهيّة؛ مقابل القضايا النّظريّة في مجال التصديقات.

- الجهة الثالثة: إنّ الفِطرة الدينيّة هي نحوٌ من العلم الحضوريّ السابق على التجربة العلميّة الإنسانيّة؛ سواء الحسّيّة منها أم العقليّة؛ في حين أنّ العلم الفِطريّ علمٌ مفاهيميٌّ يمسّه الإنسانُ بعد التجربة العلميّة الحسّيّة والعقليّة.

- الجهة الرابعة: إنّ الفِطرة الدينيّة مُتحقِّقة الوجود، ثابتة ودائمة في جميع أفراد النوع الإنسانيّ على امتداد الأزمنة، وهي لا تحتاج إلى التعليم والتعلُّم[3]؛ أمّا الفِطرة العلميّة فقد لا تحصل في بعض أنواعها لبعض أفراد النوع الإنسانيّ.

(1) يعتقد بعض فلاسفة الغرب، أمثال: رينيه ديكارت، وعمانوئيل كانت، بأنّ بعض معلومات الإنسان فِطريّة؛ بمعنى أنّها قَبْليّة، وبعضها الآخر تجريبيّ أو بَعْديّ؛ أي إنّ بعض المعارف الإنسانيّة سابقة على التجربة الحسّيّة؛ وهي التي تُسمّى فِطْريّة، وبعضها الآخر يتبع التجربة. ومن الواضح أنّ معنى الفِطْريّة عند ديكارت وكانت ليست بالمعنى نفسه الّذي يقصده الدّينيّون بلفظ «الفطْرة».

(2) هناك نظريّة منسوبة إلى أفلاطون معروفة بنظريّة «المُثل»؛ وهي تقول: إنّ الإنسان كان، قبل أنْ يأتي إلى هذا العالَم المادّيّ، موجودًا في عالَم أعلى يتّصف بالتجرّد وحضور الأشياء عند بعضها، يُسمّى «عالَم الحقائق والكلّيّات»؛ حيث كان الإنسان مدركًا لهذه الحقائق والكلّيّات، التي يُطلق عليها اسم «المُثل»، ولكنّه عندما هبط إلى هذا العالَم، نسيَ هذه الحقائق بفعل ارتباطه بالمادّة. وعندما يتّصل الإنسان بعالَم الحسّ يبدأ بتذكّر هذه الكلّيّات. ولذلك فهذه النظريّةتقول: إنّ الإنسان، في الأصل، عالِمٌ بجميع الأشياء، ولكنّه يحتاج إلى مناسبة الاتّصال بعالَم الحسّ ليبدأ العودة إلى سيرته العلميّة الأولى؛ وهي إدراك الكلّيّات، وتُسمّى هذه النظرية «نظريّة التّذكّر»؛ أي تذكّر الإنسان للمعارف والعلوم التي نسيها بعد هبوطه إلى هذا العالَم.

(3) انظر: اليزدي، محمد تقي مصباح: دروس في العقيدة الإسلاميّة، ط8، بيروت، دار الرسول الأكرم ﷺ، 1429هـ.ق/ 2008م، ج1، ص59.

ولذلك، فالفطريّ هو المنسوب إلى الفِطرة، وهو مقابل للمُكْتَسَب؛ والفِطرة هي الجِبلَّة التي يكون عليهاكلّ موجود في أوّل خلقه. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقيل: إنّ الفِطرة هي البدأة التي بدأ الله خَلْقَه عليها، أو ما أخذه الله على ذريّة آدم عليه السلام من الميثاق؛ ومهما يكن من أمر، فالفطرة هي الجبلَّة الأصليّة، أو الطبيعة الأولى التي يكون عليها المولود وقت ولادته[2].

والفِطْرة على وزن «فِعْلَة»، وهي الصيغة الدالّة على هيئة الفعل ونوعه. وعليه؛ فكلمة «فِطْرة» وعلاقتها بالإنسان في الدِّيْن تعني تلك الهيئة التي خَلَقَ اللهُ الإنسانَ عليها؛ أي إنّ الله قد خَلَقَ الإنسان على هيئة خاصّة؛ وهي فِطْرَته[3].

ويُورد العلامة الطباطبائيّ قدس سره في ميزانه كلامًا عن الراغب الأصفهانيّ، هذا نصّه: «وفطر اللهُ الخلقَ؛ وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعلٍ من الأفعال، فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ إشارةٌ منه -تعالى- إلى ما فطر؛ أي أبدع وركّز في الناس من معرفته، وفِطرة الله هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[4]»[5].

ثمّ يُعلّق على ذلك بقوله: «والظاهر أنّ الفطر هو الإيجاد عن عدم بحت، والخصوصيّة المفهومة من مثل قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾، إنّما نشأت من بناء النوع الّذي تشتمل عليه فِطرة؛ وهي فِعلة. وعلى هذا؛ فتفسير بعضهم الفِطرة بالخِلْقة بعيدٌ عن الصواب، وإنّما الخلق

(1) سورة الروم، الآية 30.

(2) صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1414هـ.ق/ 1994م، ج2، ص150.

(3) مطهّري، مرتضى: الفِطرة، ترجمة: جعفر صادق خليلي، ط2، بيروت، مؤسّسة البعثة، 1412هـ.ق/ 1992م، ص11.

(4) سورة الزخرف، الآية 87.

(5) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1417هـ.ق/ 1997م، ج10، ص287.

هو إيجاد الصّورة عن المادّة على طريقة جمع الأجزاء. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾[1]»[2]؛ فخلقُ هيئة الطير هو إيجاد صورتِه، لا عن عدم، بل عن مادّته؛ أي الطين. والفِطرة ليست كذلك، بل هي وجود محض عن عدم محض، اقتضاه بناء النوع الإنسانيّ؛ فالفِطرة استعدادٌ وجوديٌّ محضٌ، محلُّه خِلْقة النوع الإنسانيّ. فإذا كان الوجود المحض خيرًا -وهو كذلك- فلا تكون الفِطرة إلّا خيرًا؛ بحيث لا تكون الفِطرة الإلهيّة مادّةً لقبول الخير أو الشرّ؛ وإنّما يكون ذلك من صفات النّفس الإنسانيّة القابلة لكلّ صورة.

ولذلك فقد ورد في الروايات مثل هذا المعنى كثيرًا:

- ما رواه العلاء بن الفضيل، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: سألته عن قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، قال عليه السلام: «**التوحيد**»[3]، والتوحيد هو أسمى الخيرات.
- ما رواه عبد الله بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: سألته عن قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، قال عليه السلام: «**هي الإسلام، فَطَرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، فقال:** ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[4]**، وفيه المؤمن والكافر**»[5]؛ وذلك بعد نزولهم إلى عالَم الكثرات والانشغال بعالَم الحسّ والعقل والعقائد والأفكار؛ وأخذ الميثاق أمرٌ وجوديٌّ محضٌ، ولا يكون إلّا بالتوحيد.

وعلى هذا، فالدِّيْن فِطْريٌّ في الإنسان، وبالتالي، فالإنسان في أوّل خِلْقتِه يُولَد مفطورًا على الدِّيْن، وعلى الإيمان بالله؛ وإذا كان كذلك، فهذا

(1) سورة المائدة، الآية 110.
(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج10، ص287.
(3) ابن بابويه، محمد (الصدوق): كتاب التوحيد، تصحيح وتعليق: هاشم الحسيني الطهراني، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، باب فِطْرة الله عزّ وجل الخلقَ على التوحيد، ح1، ص328.
(4) سورة الأعراف، الآية 172.
(5) الصدوق، كتاب التوحيد، م.س، باب فِطْرة الله عزّ وجل الخلقَ على التوحيد، ح3، ص329.

يعني أنّه مولودٌ وفي أعماقه معرفة بالله؛ وهذه المعرفة بالله هي غير العلم الّذي تحدّثت عنه الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]. فالفِطرة علمٌ شهوديٌّ وَهْبِيّ، أمّا العلوم المعنيّة في الآية فهي من قبيل العلوم الاكتسابيّة؛ بفعل التجربة الحسّيّة والعقليّة.

وعليه، فالأصالة في خِلْقَة الإنسان هي للخير والتوحيد والفِطْرة، وهذه الأصالة لا يمكن أنْ ينالها التبديل؛ وأمّا ما نراه من شرٍّ في الإنسان في هذا العالَم فهو من التغيير الّذي يطرأ على هذه الفِطْرة. ولذلك، فما نراه من كُفر وابتعاد عن جادّة التوحيد، ليس أصيلًا في خِلْقة الإنسان. وفي هذا المقام، يقول العلامة الطباطبائيّ في تفسيره للآية: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾: «وليس من البعيد أنْ يكون المُراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفِطْرة، وترك الدين الحنيف... ثمّ عدّ -تعالى- دعوة الشيطان -وهي طاعته في ما يأمر به- اتّخاذًا له وليًّا، فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾، ولم يقل: ومنْ يكن له الشيطان وليًّا، إشعارًا بأنّ الوليّ هو الله وليس الشيطان»[2]، حيث لا ولاية لغير الله على أيِّ شيءٍ، والشيطان لا يكون وليًّا بالأصالة، بل باتّخاذه من قِبَل الإنسان؛ وهذا هو الفرق بين التبديل والتغيير.

2. مظاهر الفِطرة في النوع الإنسانيّ:

أورد الإمام الخميني قدس سره حديثًا في كتابه «الأربعون حديثًا» عن زرارة يقول: «سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، قال: **فَطَرَهم جميعًا على التوحيد**»[3]. ثمّ فسّره

(1) سورة النحل، الآية 78.

(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج5، ص86-87.

(3) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط4، طهران، دار الكتب الإسلاميّة؛ مطبعة حيدرين 1365هـ.ش، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح3، ص12.

بقوله: «اعلم أنّ المقصود من ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ هو الحال والكيفيّة الّتي خُلق عليها الناس وهم متّصفون بها، والتي تُعدّ من لوازم وجودهم؛ ولذلك تخمّرت طينتهم بها في أصل الخلق... وهنا لا بدّ من معرفة أنّ الفِطرة، وإنْ فُسِّرت في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث بالتوحيد، إلّا أنّ هذا من قبيل: بيان المصداق، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء... والدليل على أنّ المقام كذلك هو أنّ الآية الشريفة تعتبر الدين فِطرة الله، مع أنّ الدين يشمل التوحيد والمبادئ الأخرى»[1].

ومن الأحكام التي تتّصف بها الفطرة: الأصالة والذاتيّة في وجود النوع الإنسانيّ قاطبةً: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾. وأمّا ما يثير الدهشة فهو أنّه على الرغم من عدم وجود أيّ خلافٍ في الأمور الفِطريّة، يكاد الناس أنْ يغفلوا عن أنّهم متّفقون؛ لكنْ عند تنبيههم يدركون أنّهم كانوا متّفقين، على الرغم من اختلافهم في الظاهر[2].

وينقل ابن الأثير حديثًا عن الإمام علي عليه السلام، هذا نصّه: «**وجبّار القلوبِ على فِطْراتِها**»[3]، ومن هنا نستدلّ على أنّ الله خلق في الإنسان «فِطْرات» لا فِطْرة واحدة[4]. وحيث إنّ الفِطرة في آية الفِطرة هي الدين القيّم، الّذي له ظهورات وتجلّيات عديدة في حياة الإنسان، فالفِطرة، إذًا، لها تجلّيات مُتنوِّعة في أعماق النّفس الإنسانيّة؛ فلا يبعد أنْ يكون مصطلح «فِطْرات» في حديث الإمام عليه السلام أعلاه إشارةً إلى مظاهر الفِطرة المُتنوِّعة. فما هي هذه المظاهر؟

(1) الخميني، روح الله: الأربعون حديثًا، تعريب: محمد الغروي، ط9، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1435هـ.ق/ 2014م، ص221-222.
(2) م.ن، ص223.
(3) الجزري، أبو الحسن (ابن الأثير): النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي؛ محمود محمد الطناحي، ط4، قم، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، 1364هـ.ش/ 1985م، ج3، ص457.
(4) مطهّري، الفِطْرة، م.س، ص13.

إنّ في الإنسان ميولًا ونزعاتٍ تتميّز بالوعي يمكن تصنيفها إلى خمسة أصناف[1]:

- **الميل نحو طلب الحقيقة:**

النزوع إلى اكتشاف الحقائق كما هي، أو إدراكها على ما هي عليه: «اللهم أرِني الأشياء كما هي». إنّ قضيّة البحث عن الحقيقة عند الفلاسفة هي الكمال النّظري، وهو ما يُسمّى: «حسّ البحث عن الحقيقة» أو «حبّ الاستطلاع».

- **الميل نحو الأخلاق:**

النزوع نحو الفضيلة، فللإنسان تعلُّقٌ بأمورٍ لا من حيث كونها نافعة، بل حيث كونها فضيلة وخيرًا؛ أي الخير الروحيّ؛ كالنزوع نحو الصدق، والأمانة، والحسّ الاجتماعيّ، والرغبة في التعاون، ومساعدة الآخرين، والإحسان، والإيثار، وغيرها.

- **الميل نحو الجمال:**

ينزع الإنسان نحو الجمال نزوعًا مطلقًا، وهو مطلوبٌ لذاته؛ سواء أكان الجمال في الخَلق أم في الخُلق، وما من أحدٍ يخلو من الإحساس بحبّ الجمال؛ فالإنسان يشيد عمارةً لتقيه من الحرّ والبرد، ومع ذلك يسعى إلى إلباس هدفه هذا لبوس الجمال والفنّ الجميل.

- **الميل نحو الإبداع:**

إنّ في الإنسان نزوعًا إلى إيجاد ما ليس موجودًا وخلقه. صحيحٌ أنّ الإنسان إنّما أخذ يصنع ويبدع من أجل سدّ حاجاته، ولكنْ مثلما كان العلم وسيلةً للحياة، ووسيلةً للعلم لذاته، كذلك كان الإبداع. وهذا النزوع موجودٌ في كلِّ شخص، وكلُّ شخصٍ يحب أنْ يكون مبدعًا ومبتكرًا.

(1) مطهّري، الفِطْرة، م.س، ص56-72.

- **الميل نحو العشق والعبادة:**

وهو ما يُعبِّر عنه نصير الدين الطوسي بأنّه «مُشاكلة بين النفوس»؛ إذ في روح الإنسان بذرة للعشق الروحانيّ والنفسانيّ، وهي التي تُحرِّكه، على أنّ معشوق الإنسان الحقيقيّ هي حقيقة ماورائيّة تتّحد معها روح الإنسان بعد أنْ تصل إليها وتكشفها؛ والواقع أنّ المعشوق الحقيقيّ كائنٌ في داخل الإنسان.

ولعلّه بالإمكان جمع جميع ما ورد أعلاه من ميولٍ فِطريّة في الإنسان بتوجُّهه نحو طلب الكمال، ولكنّ ذلك يتمظهر في نواحي حياة الإنسان كافةً، ولا يشذّ عنها فردٌ من أفراد البشر؛ فلو عدنا إلى جميع أصحاب المِلل والأفكار والعقائد، وما اتّخذوه من سلوكيّات عمليّة في حياتهم الشخصيّة السياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة، وما التزموه من القيم، وما عانوه في هذا العالَم من طلب السعادة والراحة والجاه والمال والسلطة، لوجدنا هذا العشق والحبّ قد جُبِلَ في طينهم، ووجدنا قلوبهم متوجِّهةً نحو الكمال، وإنْ كان الناس مختلفين تمام الاختلاف في تشخيص الكمال، وفي أيِّ شيءٍ هو[1]؛ فأفراد المجموعة البشريّة كلّها تطلب الكمال، ولا شيء غيره، على الرغم من أنّهم يتوهون في صحارى هذا العالَم بتشخيص هذا الكمال.

كما إنّ من الأمور الفِطريّة في النوع الإنسانيّ: النفور من النّقص والعيب، التي هي من مستلزمات طلب الكمال. إنّ الإنسان الّذي يطلب الكمال في أمرٍ ماديٍّ، سرعان ما يطلب ما هو أكمل منه، وهكذا يستمرّ إلى ما لا نهاية، ولكنّه لا يرتوي في نهاية المطاف؛ وبما أنّ الإنسان قد فُطِرَ على ذلك، فلا يجد مبتغاه إلّا في المُطلق الأكمل، الّذي هو الله تعالى.

إنّ من تجلّيات طلب الكمال سعي الإنسان نحو «العلم الّذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا تعجز عن شيء، والحياة التي لا موت فيها»[2]. وفي

(1) انظر: التربية والمجتمع في فكر الإمام الخمينيّ، إعداد: مركز الإمام الخمينيّ الثقافيّ، ط3، بيروت، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، 2009م، ص13.

(2) م.ن، ص15.

هذا الإطار عينه «فُطِرت العائلة البشريّة كافّة على فِطرة عشق الراحة»، التي هي تجلٍّ لطلب العدالة والحرّيّة والقدرة، ولمّا «كانت موادّ هذا العالَم وما به من العسر والضيق ممّا يستعصي على حرّيّة الإنسان وإرادته، فلا بدّ -إذًا- من أنْ يكون في عالَم الوجود عالَمٌ آخر تكون للإرادة فيه كلمة نافذة، ولا تستعصي موادّه على نفوذ إرادة الإنسان، ويكون الإنسان في ذلك العالَم فعّالًا لِما يشاء، وحاكمًا بما يريد؛ كما تقتضيه الفِطرة»[1].

وبناءً على ما تقدّم، يمكن لنا أنْ نستخلص أنّ طلب الكمال هو من أعزِّ وجوه الفِطرة الإلهيّة المزروعة في أصل خِلقة الإنسان، مع اختلاف عقيدته وسلوكيّاته؛ ويُعدّ التوحيد أصل الكمالات جميعًا، التي تُطابق الواقع ونفس الأمر؛ باعتباره الكمال المُطلق الّذي يُناسب الروح الإنسانيّة التوّاقة إلى جميع كمالات الوجود.ويتفرّع عن طلب الكمال الحقيقيّ كمالاتٌ مُودَعة في أصل الطينة الإنسانيّة؛ وهي على سبيل المثال، لا الحصر: طلب العدل الّذي لا ظلم معه، وطلب الحرّيّة التي لا قيود فيها، وطلب العلم الّذي لا جهل فيه، وطلب القدرة التي لا عجز معها.

ثانيًا: الثورة الحسينيّة والأمر الفِطريّ:

يرى الإمـام الخميني قدس سره حركة عاشوراء «حركةً نابعة من دور الأديان والنبوّات والإمامة، الّتي تتلخّص في القيام بمهمّتّي نشر عقيدة التوحيد، وإقامة حكومة العدل الإلهيّ»[2]. والإمام الحسين عليه السلام هو وارث الأنبياء عليهم السلام، فأهدافه هي أهدافهم؛ وحيث إنّ أهدافهم لا تنسحب على زمانٍ دون آخر، ولا على مكانٍ دون آخر، كان: «كلُّ ما لدينا من عاشوراء»؛ كما قال الإمام الخميني قدس سره، وبالتالي فهو مدعاة للاهتمام لنفهم هذا الكلّ، على مستوى الأبعاد كافّةً. وإذا كانت مهمّة الأنبياء عليهم السلام هي البلاغ

(1) التربية والمجتمع في فكر الإمام الخمينيّ، ص19.
(2) عاشوراء في فكر الإمام الخمينيّ، إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة،بيروت، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، 1432هـ.ق/ 2011م، ص21-22.

المبين للشريعة الحقّة، فإنّ مهمّة الإمام المعصوم عليه السلام، الّذي هو امتداد للنبيّ المعصوم عليه السلام، هي حفظ هذه الشريعة ومنع انحرافها؛ فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل على التنزيل، فقد كان الإمام عليه السلام يقاتل على التأويل. وإذا كانت الثورة الحسينية لكلّ زمانٍ ومكانٍ؛ كما هو الأمر الفِطريّ، فإنّ فيها ما يحاكي هذه الفِطرة من مبادئ وقيم.

1. طلب العدالة في الثورة الحسينيّة:

لا يُمكن فهم الثورة الحسينيّة إلّا باعتبارها امتدادًا لحركة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام[1]؛ فكما كانت وظيفة الأنبياء عليهم السلام على مرّ العصور هي تحرير الإنسان من نير سلطة الظالمين؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[2]، وكذلك هي ثورة الإمام الحسين عليه السلام، باعتباره وليّ المؤمنين، ووصيّ خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث نهض وثار في وجه يزيد الذي ارتكب جميع أنواع الظلم: ظلم الرعية، والتّعدّي على ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحكم بالنار والحديد، وإخضاع المسلمين بسلطة الترهيب، بمن فيهم صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وتُشكّل العدالة مرتكزًا أساسًا في الدعوة الإسلاميّة، وهي أصل في كلّ رسالات الأنبياء عليهم السلام والأولياء عليهم السلام عبر التاريخ، فلا خيار أمام الوليّ إلّا الرفض، الأمر الّذي لا يدخل في تكتيكات السياسة الإسلاميّة، بل هو في الموقع العقديّ للقضيّة. يقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ واحدة من خصائص التشيُّع الذاتيّة منذ البداية وحتّى اليوم هي المقاومة والانتفاض بوجه الدكتاتوريّة والظلم»[3].

(1) وهو ما يتجلّى واضحًا من خلال زيارة وارث المعروفة. (انظر: الحلّي، علي بن موسى بن جعفر (ابن طاووس): اللهوف على قتلى الطفوف، تحقيق وتقديم: فارس تبريزيان، لا ط، لا م، دار الأسرة للطباعة والنشر، لا ت، ص6-7).

(2) سورة الحديد، الآية 25.

(3) عاشوراء في فكر الإمام الخمينيّ، م.س، ص21.

وفي كلمات الإمام الحسين عليه السلام لمّا دعاه والي المدينة الوليد بن عتبة -عندما أخبره بموت معاوية واستخلاف يزيد، وطلب منه أن يبايع يزيدًا- ما يشير إلى عدم المهادنة في هذا الأمر العقديّ، حيث قال عليه السلام: «إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحلّ الرحمة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكنْ نصبح وتصبحون، وننتظر وتنتظرون أيُّنا أحقّ بالخلافة والبيعة»[1].

ففي قول الإمام عليه السلام وجوه، منها:

- التأكيد على استمرار الرسالة الإلهيّة، التي بـدأت مع الأنبياء السابقين عليهم السلام، وخُتِمت بمحمدٍ صلى الله عليه وآله، واستمرّت مع أهل بيت النبوّة عليهم السلام، الّذين هم أصل الرسالة، ومحلّ الرحمة بالوحي؛ فلا يُمكن أنْ يمرّ الاعتداء على الحقّ الإلهيّ؛ وفق هذا الأصل.
- انتهاك الشريعة: إنّ شرب الخمر وارتكاب الفسوق من قِبل يزيد، هو بحدِّ ذاته دافعٌ للثورة وإقامة حدود الله تعالى.
- ارتكاب القتل الحرام؛ ذلك ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[2].
- الأحقّيّة بالبيعة والخلافة، فمحال أنْ يبايع الوليُّ حاكمًا جائرًا ظالمًا، لا يقيم الشريعة بين الناس.

فالفكر العقديّ الذي جاء به الإسلام ليبني العقول والقلوب، كان قد خضع لتأويلات السلطات الظالمة والحاكمة، وبلغ ذروته مع استلام يزيد السلطة، حيث انتقلت سيوف المجاهدين إلى الجلاوزة والجلّادين للتنكيل بالصالحين والأبرياء، وأمّا الصدقات والغنائم التي كانت تصل إلى مسجد

(1) الأمين، محسن: المجالس السّنيّة في مناقب ومصائب العترة النبوية، ط5، لا م، لا ن، 1974م، ج2،ص 98.

(2) سورة المائدة، الآية 32.

الرسول ﷺ، وتذهب منه إلى بيوت الفقراء والمساكين، فقد أصبحت تنتقل إلى قصر الخضراء لشراء الضمائر وتخدير المعارضين للسلطة الحاكمة.

لقد وصل الظلم إلى حدّ تشويه العقيدة الإسلاميّة، وخصوصًا في مجال العدل الإلهيّ من خلال ما عُمِلَ عليه من بثٍّ عقيدة المرجئة والمجبّرة، حيث أقعد ذلك المسلمين عن التحرّك، وأفقدهم القدرة على النضال تحت عناوين عقديّة؛ من قبيلعدم جواز الثورة على الظالم، وذلك من خلال تأويل بعض الآيات الكريمة؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]؛ ما أدّى إلى غرس بذور الاستسلام للواقع المرير في نفوس المسلمين وقلوبهم، حيث اعتقدوا أنْ الثورة أمرٌ خارجٌ عن إطار أحكام الدين الحنيف، وهو الأمر الّذي جعل أمّة المسلمين تقبل بحكم الأمويِّين وسلطتهم، وتحريف مبادئ الإسلام وتعاليمه. لذلك كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام ثورةً لتقويم التأويل لنصوص القرآن الكريم والسُّنّة الشريفة، بعدما خاض الرسول ﷺ معركةَ التنزيل، حتّى قيل: الإسلام محمّديُّ الوجود، حسينيُّ البقاء؛ فكان لا بدّ من دماءٍ كدماء الإمام الحسين عليه السلام، لتوقظ الفِطرة السليمة القابعة تحت الانحراف على مدار نصف قرن من الزمن، والتي عمل شياطين الإنس على تغييرها؛ استجابةً لنداء الشيطان الّذي خاطب اللهَ -تعالى-: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾[2].

ومن هنا، كان دور الإمام الحسين عليه السلام، الوريث الوحيد لثورة جدّه وأبيه على الشرك والوثنيّة والعنصريّة، شاقًّا وعسيرًا؛ لأنّه لم يرثْ معها جيشًا ولا سلاحًا؛ لكنّه في الوقت عينه لم يكنْ من طينة أولئك الذين اختاروا العبادة طريقًا إلى الجنّة؛ بدلًا عن الجهاد والتضحيات؛ فهو يُدرك

---

(1) سورة الإنسان، الآية 30.

(2) سورة النساء، الآية 119.

أنّ الطريق الأكمل إلى الله -تعالى- هو طريق الحقّ، وطريق الحقّ هو الجهاد والنضال؛ وإذا كان غيرُه من أكابر المسلمين قد انزووا في المساجد للعبادة، وتخلّوا عن الوقوف في وجه الظلم والطغيان، فإنّه عليه السلام قد قال مقولته المشهورة: «إنْ كان دينُ محمدٍ لم يستقم إلّا بقتلي، يا سيوف خذيني»، تاركًا وراءه آراء المشيرين والناصحين الذين لم تتّسع آفاقهم لأهداف ثورته، وما سيكون لها من الآثار السخيّة بالعطاء على مدى التاريخ؛ فكان لا بدّ من صدمةٍ تهزُّ واقع المسلمين، وأيُّ صدمةٍ أكبر من أنْ تُراق دماء وارث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، التي ليس على الأرض غيرها تُمثِّل ولاية الله في العالمين.

ويمكن القول: إنّ الثورة الحسينيّة لو لم تكنْ تلبيةً لنداء الفِطرة في رفض الظلم والطغيان، لما كان لها هذه المكانة في قلوب البشر على مرّ العصور، الّذي هو أحد علائم الأمر الفِطريّ في الإنسان. وما يؤكِّد هذه النتيجة ما حصل بعد استشهاد الإمام عليه السلام من اضطرابات وثورات في المملكة الأمويّة، حيث بدأت تتكشّف الأقنعة عن حقيقة الحُكم الأمويّ، الّذي لميدمْ طويلًا بعد شهادته المباركة عليه السلام.

2. طلب الحرّيّة في الثورة الحسينيّة:

وضع الإمام الحسين عليه السلام دستورًا لكلِّ مَنْ يريد أنْ يعيش حرًّا أبيًّا تحت شعار رفض الظالمين الطغاة، وعدم الهوان لهم ولجبروتهم، مهما كانوا، حيث تنادي مدرسة عاشوراء الإنسانية كلَّها، بلسان الفِطرة التي غرس البارئ طينتها في نفوس الخلائق أجمعين، للعيشِ بالعزِّ والشموخ؛ فكلُّ مَنْ عاش ويعيش على وجه البسيطة من الأوّلين والآخرين، من الصالحين والفاسدين، استجابوا ويستجيبون لنداء الفِطرة في رفض الإذلال والمهانة، وإن اختلفوا ويختلفون في المصاديق الخارجيّة لكيفيّة العيش تحت ظلِّ الحرّيّة.

لقد قال الإمام عليه السلام مقولته الفِطريّة الخالدة: «لا أعطيكم بيدي إعطاءَ

الذليلِ، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»[1]، وهو بذلك يخطُّ نهجًا دائمًا للإنسانيّة بعدم مبايعة الظالمين والطغاة؛ سواء أَكَبُرَ هذا الظلم، أم صغُرَ. ولذلك بقيت الثورة الحسينيّة عميقةً في وجدان الثوّار على مدى التاريخ، ولم تُلهِم الشيعة فحسب؛ بل امتدّ أثرها ليشمل كلّ مَنْ سمع نداءها بالحرّيّة والعدالة.

وقد ورد عنه عليه السلام كثير من الشواهد التي تؤكّد هذا الأمر، حيث قال في يوم عاشوراء: «**قال جدّي محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله: مَنْ رأى منكم سلطانًا جائرًا، مُستحلًّا لحرام الله، ناكثًا عهده، مُخالفًا لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أنْ يُدخله مدخلَه**»[2].

كما ورد عنه عليه السلام -أيضًا-: «**إنِّي لا أرَى المَوتَ إلّا سَعادةً، وَالحَياةَ مَع الظالمين إلاَّ بَرَمًا**»[3]، مضافًا إلى قوله عليه السلام: «**هَيْهَات مِنَّا الذِّلَّة، يَأبى اللهُ لَنا ذَلكَ وَرَسولُهُ والمؤمنون**»[4].

ولا يخفى على العاقل المُتّزن ما وهب اللهُ -تعالى- للإنسان من حرّيّة الإرادة في أصل خِلقته وطينته، وهو ما يُخبرُ عنه الوجدان؛ حيث لأفراد النوع الإنسانيّ نزوعٌ وميلٌ فِطريٌّ لطلب الحرّيّة. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[5]، ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[6]؛ بحيث تُشكّل الإرادة عنصرًا أساسًا في النظرة الإسلاميّة للإنسان، وهذه الإرادة الحرّة التي يُثبتها العقل والوجدان اللذين أنعم الله -تعالى- بهما على الإنسان، هي التي تجعل الإنسان في موقع المُميّز بين

(1) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، م.س، ص171.
(2) الأزدي الغامدي، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم: مقتل الحسين، تعليق: حسينالغفاري، قم، المطبعة العلميّة، ص85.
(3) الحرّاني، الحسن(ابن شعبة): تحف العقول، ط1، بيروت، مؤسّسة التاريخ العربيّ، 2009م، ص142.
(4) م.ن، ص140.
(5) سورة الكهف، الآية 29.
(6) سورة الإنسان، الآية 3.

الخير والشرّ بحكم الفِطرة الربّانيّة، وهي التي تجعله سيّدًا حقيقيًّا على قراراته وخياراته.

هذه الحرّيّة لا يُقيّدها الخوف، وهي حرّيّة تنبع من إرادة حرّة مطلقة، هي التي جسّدها الإمام الحسين عليه السلام حين عبّر عن حرّيّة مطلقة في عبادة الله -تعالى- في قوله: «**إنّ قومًا عبدوا الله رغبةً، فتلك عبادة التجار؛ وإنّ قومًا عبدوا الله رهبةً، فتلك عبادة العبيد؛ وإنّ قومًا عبدوا الله شكرًا، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة**»[1]. وحيث كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي الثورة التي فعّلت جميع مضامين الإسلام ليبقى شعلة وهّاجة، تضمن للإنسانيّة نظامها الأصلح، فقد أكّدت هذه الثورة على عنصر الحرّيّة في الإنسان. وعلى هذا الأساس في الحرّيّة كان تعامله عليه السلام مع الآخرين في الثورة، حيث نراه يخاطب مَنْ كان معه بعد خروجه من مكّة: «**مَنْ كان فينا باذلًا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبح إنْ شاء الله تعالى**»[2]؛ كما خاطبهم عند وصول خبر استشهاد مسلم بن عقيل عليه السلام: «**أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبرٌ فظيعٌ، قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمَنْ أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج، ليس عليه ذمام**»[3]. وكذلك خاطب جيش ابن سعد يوم العاشر بقوله: «**إنْ لم يكن لكم دين، فكونوا أحرارًا في دنياكم**»[4]؛ كلُّ ذلك لتكون نصرتُهم له عن إرادة حرّة، تليق بالإنسان الحرّ الذي ينطلق من تكوينه المتسامي.

فلم تكن الثورة الحسينيّة ثورةً ظرفيّة تهدف إلى تغيير نظام الحكم، أو الدفاع عن بلد، أو دفعًا لجيش غازٍ، بل كانت لتؤكّد هذه الحقيقة الخالدة؛ وهي أنّ الإنسان، بحكم فِطرته الصافية، كائنٌ متسامٍ، وهبه الله

(1) ابن شعبة، تحف العقول، م.س، ص142.
(2) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، م.س، ص126.
(3) العكبريّ، محمد بن محمد بن النعمان (المفيد): الإرشاد، تحقيق: مؤسّسة آل البيت لتحقيق التراث، ط2، 1993م،ج1، ص 75.
(4) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، م.س، ص171.

العقلَ والضميرَ والوجدانَ، وعليه أنْ يُثبت أنّه سيّد قراراته وخياراته، فلا تقيّده رغبة أو خوف أو طمع. لقد استشهد الإمام عليه السلام لكي تبقى الأجيال البشريّة على مدى التاريخ تتأمّل قصّة الطفّ، فلا تجد غيرَ رجلٍ، فوّت على نفسه جميع فرص النجاة؛ كي يُخلّد مبدأ الإنسان المتسامي بإرادته الحرّة.

3. نماذج من كربلاء:

أ. الحرّ بن يزيد الرياحيّ:

إنّ في الشهيد الحرّ درسًا بليغًا في العناية الإلهيّة للإنسان؛ حينما تتوفّر لديه النيّة الصادقة والعزم والإصرار على تحقيق ما يريد، فالحرّ الذي كان يروم القتال بين يدي ابن زياد لمواجهة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقيّة أهل بيته الأطهار، قد واجه نفسه أشدّ المواجهة، وأجبرها على الخضوع إلى طريق الحقّ والصواب، على الرغم من أنّه كان يعلم أنّ الشهادة بانتظاره إنْ هو أصرّ على مؤازرة الحسين عليه السلام والقتال بين يديه؛ وفي هذا يذكر التاريخ أنّ الشهيد الحرّ أخذته رجفة على حين غرّة لم يُرَ أبدًا في مثلها عندما كان مستعدًّا مع جيش ابن زياد لقتال الإمام الحسين عليه السلام، فسأله أحد أصحابه من جيش ابن زياد، هل هو الخوف من الحرب أم ماذا، فأجاب أنا لا أخشى الحرب، إنّما أنا أُخيّرُ نفسي بين الجنّة والنار [1]، وضرب الفرس مغادرًا إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام للقتال بين يديه.

لقد كاد الحرُّ أنْ يرتكب جريمةً يلحقه عارها في الدنيا، ونارها في الآخرة، إلّا أنّ العناية الإلهيّة قد شملته، فكيف يمكن تفسير توبة الحرّ؟ فالرجفةُ التي أصابته وهزّت كيانه، وأوقدت فيه النفحة الإلهيّة، ما هي إلّا دليلٌ على أنّ شيئًا ما مخبوءٌ في طينته؛ ألا وهو الفطرة التي لا تقبل التبديل، وإنْ نالها التغيير بفعل الانحراف، فكانت نصرتُه للإمام عليه السلام عينَ

(1) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، م.س، ص159.

نداءِ الفطرةِ المُتعالية من بين جنبات روحه المُتحرِّرة من كلِّ شبهات الهوى الَّذي أضلّه سابقًا. إنّ نداء الفِطرة في طلب الحرّيّة كامنٌ في أعماق نفوس البشر أجمعين لولا ما ران على قلوبهم من المعاصي والانحراف والإجرام.

ب. عمر بن سعد وشبث بن ربعي:

كان قسمٌ من جيش الكوفة الذي قاتل الإمام الحسينَ عليه السلام، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وممّن اشترك معه في حروبه، حتّى إنّ شبث بن ربعي، قائد الرجالة عند ابن سعد، سُمِعَ يقول: «لا يعطي الله أهل هذا المصر خيرًا أبدًا، ولا يسدّدهم لرشد، ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب، ومع ابنه الحسن آل أبي سفيان خمس سنين، ثمّ عَدَوْنا على ابنه؛ وهو خير أهل الأرض، نقاتله مع آل معاوية وابن سميّة ...، ضلال يا لك من ضلال»[1].

ويُروى أنّ بُريرًا قال لعمر بن سعد: «لو كنتَ مسلمًا ما خرجت إلى عترة نبيّك محمد صلى الله عليه وآله تريد قتلهم وسبيهم، ومنعت عنهم ماء الفرات الذي تشربه الكلاب والخنازير، وتزعم أنّك تعرف الله ورسوله؛ فأطرق عمر بن سعد إلى الأرض ساعة، ثمّ قال: يا بُرير إنّي أعلم علمًا يقينًا أنّ كلَّ مَنْ قاتلهم مخلّد في النار، ولكنّ نفسي لا تطاوعني أنْ أترك مُلك الريِّ، وتصير لغيري، فرجع بُرير إلى الحسين عليه السلام، فأخبره أنّ ابن سعد قد رضي بقتلك في مقابل ولاية الريّ».

وقال المجلسي: لمّا عبّأ ابن سعد أصحابه لمحاربة الحسين عليه السلام قال الحسين عليه السلام: **أين عمر بن سعد، ادعوا لي عمرًا**، فدُعي له، فقال له: **يا عمر أنت تقتلني وتزعم أنْ يوليّك الدعيّ ابن الدعيّ بلاد الريّ وجرجان، والله لا تهنأ بذلك، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنّك**

(1) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، لا ط، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لا ت، ج4، ص332.

لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة»[1].

لقد كان كلٌّ من عمر بن سعد وشبث بن ربعي، وغيرهما ممّن قاتل الإمام عليه السلام، يعلمون علم اليقين أنّ الحسين عليه السلام هو صاحب الحقّ، وقد علمتْ نفوسهم وقلوبهم وعقولهم ذلك، ولكنّهم كما قال -تعالى-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]، وربّما لأجل استنهاض صوت الفِطرة في أعماقهم، كان الإمام عليه السلام يعظهم في أكثر من موقع قبل وقوع الحرب؛ فقد حاول تذكيرهم برسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ عليه ملابس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلاحه، وعمل أكثر من هذا؛ فحمل إليهم طفله الرضيع يطلب له منهم شربة من الماء، ونجحت المحاولة، وأحدث عليه السلام الضجّة في عسكر ابن سعد -وإنْ كانت مبادرة حرملة بن كاهل لقتل الرضيع قد أفشلت المحاولة- وذلك كلُّه للتأثير فيهم، وإعادتهم إلى فِطرتهم التي يعلمون من خلالها يقينًا بصوابية أمر الحسين عليه السلام، ولكنّهم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3]. لقد غيّر الشيطان في خلقهم فضلّوا وخسروا خسرانًا مبينًا: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[4].

ثالثًا: إشكالية الثورات الأخرى وارتباطها بنداء الفِطَرة:

إذا كانت ثورة الحسين عليه السلام قد ألهبت قلوب المسلمين والإنسانيّة بفعل انسجامها مع نداء الفِطرة الإنسانيّة السليمة، وبفعل ما أسلفنا من شعاراتها، فهل هذا النداء الصادح في تاريخ الإنسانيّة محصورٌ بالثورة

(1) المقرّم، عبد الرزاق: مقتل الإمام الحسين، تقديم: محمد حسين المقرّم، ط5، بيروت، دار الكتاب الإسلامي، 1979م، ص235.
(2) سورة النمل، الآية 14.
(3) سورة المجادلة، الآية 19.
(4) سورة النساء، الآية 119.

الحسينيّة؟ وهل الثورات الأخرى التي غيّرت في مجرى التاريخ الإنسانيّ الحضاريّ والثقافيّ والاجتماعيّ والقيميّ؛ مثل: الثورة الفرنسية عام 1789م، هي ثورات منسجمة مع الفِطرة الإنسانيّة السليمة؟

في معرض الإجابة عن هذا التساؤل، لا بدّ من التمييز بين مقامَيْن:

1. المقام الأوّل:

إنّ أصل وجود الفِطرة السليمة الرّبّانيّة هي الطينة والخِلْقة التي وُجِد عليها أفراد المجموعة الإنسانيّة قاطبةً؛ صالحهم وفاسدهم؛ وهذه الفِطرة الأولى التي: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، ثابتةً، لا تبديل فيها: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ هذا هو الدين الحقّ الّذي يتجلّى في التوحيد وطلب الكمال؛ كلّ الكمال، في العدل، والحرّيّة، والأخلاق، والمعرفة، والبقاء، وهذا هو الدين القيّم الّذي لا تبديل فيه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وعدم علمهم بسبب إخلادهم إلى الأرض؛ فالبشر في أصل وجودهم يطلبون ذلك الكمال كلّه بفعل ما جُبِلوا عليه من الفِطرة، وإنْ كانوا لا يعلمون ذلك؛ فهم متّفقون بالخِلقة في ذلك؛ لأنّ الخِلقةَ الأولى باقيةٌ على مرّ الأزمنة، وفي مختلف بقاع الأرض، فهي خِلقة الخير ولا تبديل فيها البتّة، وإنْ وقع بعض البشر في الجريمة والانحراف.

وهذا المقام من الحديث يُمكن أنْ نُطلق عليه مقام ثبوت الشيء في ذاته، وهذا الشيء لا يُبطله عقلٌ أو قلبٌ، سواء أدركه أم جهله، فعدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود، وذات الفِطرة موجودةٌ؛ سواء التفتَ الناس إليها أم غفلوا عنها، وهي أمرٌ تكوينيٌّ باقٍ ما دامت الحياة الإنسانيّة باقية، لا إرادة للإنسان في التّصرّف فيها.

2. المقام الثاني:

وهو المقام الّذي يتعلّق بما قد يطرأ على هذه الذات من تغييرات؛ بفعل إرادة الإنسان من العقائد والأعمال والقيم، وهو المقام الّذي يُعبِّر

عنه قوله -تعالى-: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]. فإذا كان الناس في المقام الأوّل متّفقين؛ وإنْ كانوا لا يعلمون ذلك، فهم في المقام الثاني في حالة اختلاف وخلاف، وهم يدركون ذلك؛ لأنّ المقام الثاني هو محلّ اختيار الإنسان من خلال وعيه والتفاته وإرادته.

ولتوضيح المسألة ننقل كلامًا جامعًا للإمام الخميني قدس سره ورد في كتابه «الأربعون حديثًا»، حيث يقول: «إنّ من الأمور الفِطريّة التي جُبِلت عليها سلسلة بني البشر بأكملها، بحيث إنّك لا تجد فردًا واحدًا في كلِّ المجموعة البشريّة يخالفها... الفِطرة التي تعشق الكمال؛ فإذا استنطقتَ كلّ ملّة من المِلل، تجد هذا العشق والحب للكمال... على الرغم من وجود منتهى الخلاف بين الناس فيما يرَوْنه من الكمال... فكلٌّ يجد معشوقه في شيء... فيتخيّله في أمرٍ معيّن، ويتفانى في سبيله تفاني العاشق،كما عند أهل الدنيا وزخارفها الذين يحسبون الكمال في الثروة، ويجدون معشوقهم فيها...وكذا حال أهل العلوم والصنايع»[2].

إذًا، فعشق الكمال في العلم والحرّيّة والعدالة والقدرة هو مطلب جميع النفوس البشريّة، وهو ما عبّرنا عنه بثبوت الشيء في ذاته: «مقام الثبوت»، من الأمر القهريِّ والفِطريِّ والتكوينيِّ، ولكنّ هؤلاء البشر يختلفون في تشخيص هذا الكمال، وما يجدون فيه ضالّتهم، وهو ما أطلقنا عليه بما قد يطرأ على هذه الذات من تغييرات بفعل إرادة الإنسان.

وبناءً على ما تقدّم، يمكن القول: إنّ ما أراده الإنسان الأوروبيّ في ثوراته الحديثة التي أدّت إلى نهضته العلميّة والفكريّة والثقافيّة ينسجم مع ما جُبِلَ عليه الإنسان في مقام الثبوت من حبّه وعشقه للحقيقة والحرّيّة والعدالة؛ وبالتالي، حبّه للكمال. وإذا تتبّعنا التاريخ الأوروبيّ وما

(1) سورة الشمس، الآيات 8-10.
(2) الخميني، الأربعون حديثًا، م.س، ص224-225.

عانته شعوبه من الظلم والهوان بفعل السلطات الحاكمة، والحروب التي نشبت تحت عنوان الدين وأوْدت بالملايين من القتلى، أدركنا لماذا وصلت أوروبا الحديثة إلى الأخذ بالعلمانيّة حلًّا لمشاكلها، وهو بحثٌ خارجٌ عن إطار بحثنا هذا.

ولكنّ ذلك لا يمنع من نكران أصل توق الإنسان الأوروبيّ الحديث إلى الحرّيّة والعدالة؛ بفعل ما زُوِّد في أصل طينته البشريّة من السعي نحو الكمال في العلم والحرّيّة والعدالة؛ ولعلّنا نجد كثيرًا من الشواهد على ذلك في أقـوال بعض فلاسفة الغرب؛ أمثال: جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) (م1778 - م1712) الّذي يُعدُّ من أهمّ كتّاب عصر العقل الأوروبيّ الحديث، وهي فترة من التاريخ الأوروبيّ، امتدّت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديّين، وقد ساعدت فلسفة روسّو في تشكيل الأحداث السياسيّة التي أدّت إلى قيام الثورة الفرنسيّة، حيث أثّرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

يقول روسو: «خُلِقَ الإنسان حرًّا، ولكنّه يعاني دائمًا من القيود التي تربطه بالضغوط الاجتماعيّة، وهو يسعى صارخًا للثورة والإصلاح ما دام موجودًا، كما إنّ الإنسان خَيِّرٌ بطبيعته، لكنّ المجتمع يُفسده»[1].

ولذا، لا يمكن الاستهانة بما فعله العقل الغربيّ الأوروبيّ، وبما أنتجه من فلسفات وأفكار، على الرغم من تعارضها مع الاتّجاهات الدينيّة، وإن كانأصل هذا السعي نابعًا من توق الإنسان إلى معرفة الحقيقة وكمال الأشياء في العدالة والحرّيّة والعلم؛ فالإنسان، في واقع الأمر، قد سعى منذ أنْ وُجِدَ على سطح المعمورة، نحو التّفكّر والتّفلسف، سعيًا فِطريًّا نحو الكمال المنشود في اكتناه حقائق الأشياء. وعلى الرغم منأنّه لم يُصب الواقع في كثيرٍ من الأحيان،ولكنّ سعيهكان ثابتًا في ذاته فِطريًّا.

(1) Ted Honderich, The Oxford Companion to Philosophy, Oxford University Press, 1995, P780.

وقد كتب جان جاك روسو كتابًا تمّت ترجمته بعنوان: «دين الفِطرة أو عقيدة القسّ من جبل السافوا»، استعرض في أجزاء كثيرة منه الطبيعة البشريّة الأولى قبل أنْ تتدخّل فيها عوامل التربية والاجتماع، وهو يُطلق على هذه الطبيعة اسم «إنسان الطبيعة»، ويقول في مقطعٍ من كتابه: «لا أحتاج إلى مَنْ يهديني إلى عبادة تفرضها عليَّ الفِطرة. من طبيعة النفس البشريّة أنْ تحبّ ذاتها، فكيف لا تُقدّس تلقائيًّا مَنْ يرعاها»[1]، كما يقول: «يشعر الإنسان، كما هو مطبوعٌ في قلبه، بغريزة العدل والإنصاف»[2]؛ كما يقول: «حتّى أنذل المجرمين لا يتنكّرون بالكامل لعاطفة العدل والإنصاف»[3]؛ مضافًا إلى قوله: «هل تعتقد أنّه يوجد في الدنيا فردٌ فاسد الخُلق إلى حدٍّ أنّ فعل الخير لم يُغْرِه قطّ؟ هذا الإغراء فِطريٌّ إلى درجةٍ أنْ لا أحد يصمد له في كلّ مناسبة، واللذّة التي يخلفها فعل الخير في النّفس تكفي للإغراء به مرّة بعد أخرى»[4].

ويتبيّن ممّا تقدّم أنّ أفراد النوع الإنسانيّ جميعهم قد ثبُت فيهم بحسب المقام الأوّل التوجّه الفِطريّ نحو طلب الكمال في العدل، والحرّيّة، والعلم، والقدرة، والإرادة، لكنّ السؤال يبقى في المصاديق التي يتوجّه من خلالها هذا النوع الإنسانيّ للوصول إلى الكمال، وهنا محطّ اختلاف الناس في العقائد، والأفكار، والقيم، وهذا هو المِلاك في تمييز الثورة الحسينيّة عن الثورات الأوروبيّة الحديثة وغيرها من الثورات؛ فما هو المائز في الثورة الحسينيّة؛ مضافًا إلى اشتراكها مع غيرها من الثورات في تلبيتها نداء الفِطرة الإنسانيّة في طلب العدل والحرّيّة والإباء؟

(1) روسو، جان جاك: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، تعريب: عبد الله العروي، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ، 2012م، ص50.
(2) م.ن، ص52.
(3) م.ن، ص72.
(4) م.ن، ص80.

رابعًا: خصوصيات الثورة الحسينية وتميّزها عن الثورات الغربيّة الحديثة:

إنّ الإشكاليّة الكبيرة التي تواجه الإنسان؛ الفرد والمجتمع، هي في محاولته إيجاد المصداق الواقعيّ الّذي يُماثل التوجّه الفِطريّ القهريّ في أعماقه؛ فإذا كان الإنسان، بما هو إنسان، يطلب العدل والحرّيّة والإباء، فإنّ السؤال المطروح، حينها، في الكيفيّة والهدفيّة التي ينشدها من هذه الأمور الفِطريّة. ومن هنا تنطلق الخصوصيّة الحسينيّة التي يُمكن لنا أنْ نُعدِّد فيها بعض الميّزات:

1. البُعد الأخرويّ مقابل البُعد الدنيويّ:

وهو البُعد الّذي يُمكن التعبير عنه بالمُقابلة بين البُعدَيْن بـ: الغيبيّ والمادّيّ، أو الدينيّ والعلمانيّ، أو الوحيانيّ والحسّيّ التجريبيّ.

وبلحاظ ذلك، تتميّز الثورة الحسينيّة باعتبار إصلاح الدنيا، على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ، مقدّمةً ضروريّة لإعمار الآخرة بالروح والريحان؛ وفق القاعدة الحسينيّة: «**إنّما خرجتُ لطلب الإصلاح...أريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر...فمَنْ قبلني بالحقّ، فالله أولى بالحقّ**»[1]؛ فالمسألة ليست صراعًا على الزعامة، وإنّما تمكين الحقّ؛ حقّ الله، من أنْ يأخذ موقعه في حياة الأفراد والأمّة، إذ الولاية ليست أمرًا بشريًّا. قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. قال الإمام الحسين عليه السلام: «**اللهم إنّك تعلم أنّه لم يكنْ ما كان منّا تنافسًا في سلطان، ولا التماسًا من فضول الحطام، ولكنْ لنُري المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويُعمَل بفرائضك وسننك وأحكامك، فإنْ لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظَلَمة عليكم، وعملوا على إطفاء نور نبيّكم، وحسبنا الله وعليه توكّلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير**»[3].

(1) المقرّم، مقتل الإمام الحسين، م.س، ص139.

(2) سورة البقرة، الآية 124.

(3) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان؛ إبراهيم الميانجي؛ محمد الباقر البهبودي، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج97، ص80-81.

إنّ دعوة الإمام الحسين عليه السلام إلى الثورة، وإقامة العدل، وعدم الخضوع للظلم، وطلب الإباء في أمّة بلغت حدًّا مرعبًا في الاستكانة والهوان أمام ترهيب السلطة وترغيبها؛ هي -في الحقيقة- دعوة تستند إلى الوحي والبُعد الغيبيّ في إصلاح المجتمع؛ لأنّ الإمام عليه السلام مُكلّفٌ من السماء بإقامة الحدود؛ تمهيدًا لإقامة المجتمع الأنموذجيّ الّذي يُشكّل قابليّةً واقعيّةً لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

بينما نجد أنّ الثورات الغربيّة الحديثة في الوقت الّذي كانت تتناغم فيه مع سياق الفِطرة الإنسانيّة، حسب المقام الأوّل، كانت في مقام تشخيص الحقّ، أو مقام المصداق الواقعيّ، مجرّد استجابةٍ لفكرٍ أُلغِيَ فيه البُعد الدينيُّ أو الغيبيُّ من حياة الإنسان؛ ولذلك، فإنّ أفول الدين، والتناغم مع هذه الدنيا، وتحرّر المجتمع من قيود الدين، وسلخ القدسيّة عن العالَم، والسير من المجتمع القُدسيّ إلى المجتمع العلمانيّ؛ هي أهمّ خصائص هذه الثورات.

إنّ «التناغم مع الدنيا»، و«أصالة الشؤون الدنيويّة»، تشكّل الهويّة الدقيقة للعلمانيّة؛ بمعنى أنّ الوجود ينحصر في العالَم المادّيّ المحسوس، ونكران الوحي ودور النّص الديني في حياة البشر الاجتماعيّة[1]، بحيث باتت هذه الأمور تشكّل مرتكزات الوعي الفكريّ والعقديّ للثورات الغربيّة الحديثة.

وعليه، فإنّ أقصى ما طلبته هذه الثورات هي دعوى سعادة الإنسان في هذا العالَم عَبْرَ شعاراتها التي أطلقتها: العدل، والحرّيّة، والمساواة، وحقوق الإنسان.

وعلى هذا الأساس، فالثورات الغربيّة، القائمة على العلمانيّة بصورة واضحة، وعلى أساس الحياة في هذا العالَم، اختصّت بإدارة الحياة وهدايتها في هذا العالَم، واقتصرت على تأمين الرفاه في الحياة الدنيويّة؛ أمّا في

(1) فصيحي، أمان الله: «المجتمع العلمانيّ: المُكوّنات والمميّزات»، من كتاب «العلمانيّة مذهبًا: دراسات نقديّة في الأسس والمرتكزات (مجموعة من المؤلّفين)»، إعداد: مهدي أُميدي، إشراف: محمد تقي سبحاني، ترجمة: حيدر نجف، ط1، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2014م، ص26-27.

المجال الأخلاقيّ، فقد قامت على أساس النزعة النفعيّة التي تبحث عن أعظم السعادة في هذه الحياة فقط؛ لأنّها تعتبر أنّ وجود عالَم الآخرة ينتمي إلى حيّز الظنون والحدس المثير للجدل[1].

2. الألوهيّة مقابل الأنسنة:

وهو البُعد الّذي يُمكن التعبير عنه بالمُقابلة بين البُعدَيْن: محوريّة الله ومحوريّة الإنسان، أو الإنسان بوصفه خليفة الله مقابل الإنسان الإله. قال الإمام الخميني قدس سره: «إنّ الهدف الّذي بُعث من أجله الأنبياء عليهم السلام، والذي تُعدّ جميع الأعمال الأخرى مقدّمةً له؛ هو نشر التوحيد، ومعرفة الناس بالعالَم ورؤيته كما هو، لا بالشكل الّذي ندركه. وقد بذل الأنبياء جهدهم للتهذيب والتعليم، وانصبّت جميع الجهود لإنقاذ الناس من هذه الظلمة الّتي تُسيطر على العالَم، إلى النور...»[2].

إذاً، فمعرفة الله -تعالى- وإخراج الناس من ظلمات الجهل والجاهليّة إلى النور؛ نور المعرفة والعبوديّة لله؛ هو الهدف الأسمى لثورة الأنبياء عليهم السلام والأولياء عليهم السلام. ويتبع ذلك وظيفة معنويّة لإنقاذ الناس من أسر النفس وأسر ذاتها. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[3].

وقد أوضح الإمام الحسين عليه السلام، عند خروجه من المدينة، معالم التوحيد في ثورته؛ إذ كتب وصية إلى المسلمين في المدينة وفي غيرها، وختمها بختمه الشريف، وسلّمها إلى أخيه محمد بن الحنفية، وفيما يأتي نصّ الوصية: «**هذا ما أوصى به الحسين بن علي إلى أخيه محمد بن الحنفية، أنّ الحسين يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنّة حقّ، والنار حقّ،**

(1) محسني، «مدخل إلى العقلانيّة العلمانيّة»، م.س، ص123.
(2) عاشوراء في فكر الإمام الخمينيّ، م.س، ص16.
(3) سورة الأنبياء، الآية 73.

وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ، فالله أولى بالحقّ، ومَنْ ردَّ عليَّ أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين وهو خير الحاكمين»[1].

هـذا، في حين أنّ الـثـورات الغربيّة تقوم على ركـنٍ أسـاس هو الأنْسنة [2](Humanism)؛ وهي عبارة عن مجموعة افتراضات تضع الإنسان في موقعٍ مُميَّز في المشهد العامّ للوجود؛ وهي نظريّة في المنظور العامّ الّذي نرى العالَم من خلاله أكثر ممّا هي مذهب في التفكير أو مجموعة من المعتقدات. لقد لعبت الأنسنة دورًا بالغَ الخطورة في تاريخ الثورات الغربية، وشكّلت مفصلًا أساسًا في الحياة الفكريّة الغربيّة، على اعتبار أنّ الأنْسنة هي الفكرة المُهيمنة ومحور الحياة الثقافيّة والسلوكيّة في الحضارة الغربيّة.

لقد طُرِحت الأنْسنة على اعتبار أنّ الإنسان هو محور العالَم؛ وذلك مقابل محوريّة الله في الوجود، بعد أنْ شعر الإنسان بالتفوّق على الطبيعة من خلال الإنجازات العلميّة التجريبيّة الضخمة التي أكسبته القدرة على التصرُّف بالطبيعة. وقد شكّل هذا المفهوم العصب الفكريّ للثورة الفرنسيّة، التي هي نتاج توسعة وتعميق هذا المفهوم الّذي يعود إلى بدايات القرن الثامن العشر الميلاديّ مع بعض الفلاسفة الفرنسيِّين؛ أمثال فولتير وروسو، وبعض الفلاسفة الأوروبيّين والأمريكيّين؛ أمثال: بنثام، وهيوم، وكانت، وفنكلين، الّذين اجتمعوا على مبادئ وقيم أساسيّة في شأن الأنْسنة؛ وهي: الحرّيّة، والمساواة، والتسامح، والعلمانيّة، والعالَميّة، وذلك على الرغم من عدم انتمائهم إلى مدرسة فلسفيّة واحدة.

(1) المقرّم، مقتل الإمام الحسين، م.س، ص139.

(2) لمزيد من الاطّلاع حول الأنسنة، انظر: General Editor Robert Audi, The Cambridge Dictionary of Philosophy, Ibid., P 396-397.

لقد آمنوا باكتمال قدرة الإنسان والطبيعة الإنسانيّة، وبحسِّه الأخلاقيّ، ومسؤوليّته، وقدرته على تحقيق التقدّم للإنسانيّة، دون الحاجة إلى القِوى غير الطبيعيّة والتجريبيّة؛ ما يعني -بالتالي- عدم حاجته إلى النصّ الدينيّ.

كما اُعتُبِرت الأنْسنة الحديثة استلهامًا من التراث الإغريقي اليونانيّ القديم؛ وذلك بعد دخول أوروبا في عصور الظلام في القرون الوسطى(Mediaeval Ages)، فتسارعت حركة الأنْسنة في الغرب على الرغم من التساؤلات الكثيرة التي أُثيرت حولها، بخاصّةٍ بعد تطوّر مسار الصناعة، وبروز الضواحي الفقيرة حول المدن، وانتشار الجريمة.

لقد فهمت الثورات الغربيّة محوريّة الإنسان في الوجود، المساوي للوجود المادي دون الغيبي، وذلك في مقابل محوريّة الله في الوجود، المُتضمّن للوجودَيْن: الماديّ والغيبيّ. وبالتالي، فقد وُضِع العقل الإنسانيّ، في الثورات الغربيّة، في عَرْض الوحي الإلهيّ، مع أرجحيّة العقل الإنسانيّ على الوحي؛ فالنزعة العقلانيّة في هذه الثورات هي مقابل النزعة الإيمانيّة، وهي النزعة التي تُشدّد على قدرة العقل البشريّ على معرفة الحقيقة واكتشافها من دون الحاجة إلى الوحي. وأمّا العقل الإنسانيّ في الثورة الحسينيّة، فقد وُضِع في طول الوحي السماويّ، فلا يستقلّ عنه، ولا يتعارض معه؛ فالشريعة الحقّة أعلى مِنْ أنْ تتصادم مع المعارف الحكميّة واليقينيّة، والاستدلال بالبرهان قيمةٌ لا يُمكن أنْ تتعارض مع النصّ المقدّس؛ إذ «كلُّ راجح في العقل واجبٌ بالعناية»[1].

ونجد في التّصور الحسينيُّ، بحكم محوريّة الله -تعالى- في عالَم الوجود، أنّ المنظومة الأخلاقيّة الفرديّة والاجتماعية لا يمكن لها أنْ تنفكّ عن تبعيّة هذه المنظومة للنّصّ الدينيّ؛ فلا بدّ من ملازمة الأخلاق الإنسانيّة للدين، بعيدًا عن المصالح الذاتيّة والأنانيّة، حيث الفرد جزءٌ من الهيكل

(1) الشيرازي، محمد(صدر الدين): شرح أصول الكافي، تعليق: علي النوري، تصحيح: محمد خواجوي، طهران، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي، 1370هـ.ق/1950م، ج1، ص127.

الاجتماعيّ العامّ. وأمّا الفكر الذي قامت عليه الثورات الغربيّة، فقد تبنّى التفكيك بين الدين والأخلاق، وجعل الذات الأنانيّة أساسًا لأخلاق الأفراد، على اعتبار أنّ الربط بينهم وهمٌ من الأوهام؛ ولذلك يجب إنقاذ الأخلاق، وعزلها عن الدين؛ وعلى هذا الأساس تكون النُّظم الأخلاقيّة غير دينيّة، بل دنيويّة، أو أرضيّة أو علمانيّة؛ فالأخلاق الداروينيّة، مثلًا، توصي بسحق الضعيف من قِبل القوي، على اعتبار أنّ ذلك يتطابق مع قوانين الطبيعة، التي تعطي الأولويّة لبقاء الأصلح والأقوى؛ وهي بالتالي، تعاكس الأخلاق الحسينيّة التي تدعو إلى مناصرة الضعيف والمظلوم.

3. الجماعة مقابل الفرد:

وهو البُعد الّذي يُمكن التعبير عنه بالمُقابلة بين البُعدَيْن: الجماعيّ والفرديّ الذاتيّ، أو أصالة الجماعة ومصالحها وأصالة الفرد ومنافعه؛ وعن ذلك يقول الإمام الخميني قدس سره: «لقد بُعث الأنبياء عليهم السلام لإصلاح المجتمع؛ وكلّهم كانوا يؤكِّدون على لزوم التضحية بالفرد من أجل المجتمع؛ مهما كان الفرد عظيمًا، وحتّى لو كان الفرد أعظم مَنْ في الأرض؛ فإذا اقتضت مصلحة المجتمع التضحية بهذا الفرد فعليه أنْ يضحّي... وعلى هذا الأساس، ثار سيّد الشهداء عليه السلام وضحّى بنفسه وأصحابه وأنصاره، فالفرد يفدي في سبيل المجتمع؛ فإذا توقّفت مصلحة المجتمع على تضحيته وجب التضحية، إذ لا بدّ للعدالة من أن تتحقّق بين الناس»(1).

لقد قاد الإمام الحسين عليه السلام ثورةً، دفع نفسه فداءً لها: «**شاء الله أنْ يراني شهيدًا**»(2)، وهذا هو أغلى ما يُمكن أنْ يُقدَّم على مذبح العدالة والحرّيّة والإصلاح والتغيير في الأمّة. لقد ذُبِحت الأنانيّة والفردانيّة والذاتيّة في صحراء كربلاء لتعيش الجماعة والأمّة سعادة الدارين.

(1) عاشوراء في فكر الإمام الخمينيّ، م.س، ص22.
(2) الأمين، المجالس السّنيّة في مناقب ومصائب العترة النبويّة، م.س، ج2، ص172.

من الأبيات المنسوبة إلى الإمام الحسين عليه السلام:

إلهي تركتُ الخلق طُرًّا في هواك وأيتمتُ العيال لكي أراك

فلو قطّعتني في الحب إربًا إربًا لما مالَ الفؤاد إلى سواك

أمّا الثورات الغربيّة التي ركّزت على نزعة الأنْسنة، فقد عملت على تربية الإنسان وتعزيز روح الفردانيّة عنده في مجال حرّيّة الفكر والرأي، واستخدام الذكاء والذرائعيّة(Pragmatism) في كلِّ شيء؛ فالأصالة عندها للفرد وليس للجماعة.

إنّ تنمية الروح الذاتيّة عند الفرد تحصر اهتمامه بهذا العالَم، حيث يحصل ضربٌ من التحرّر والتحلّل والتسيّب عند الأفراد يُسمّى «علمنة الفرد»[1]؛ وفي هذه العمليّة، تتحرّر أفكار الفرد وميوله وعواطفه وسلوكه من أيّ تبعيّة وقيود والتزامات ماورائيّة، بحيث ينخفض تأثير العناصر والعوامل فوق الطبيعيّة وما وراء هذا العالَم في خياراته وأساليب عمله، فتصبح مرجعيّته في الأفكار والسلوك مرجعيّةً ذاتيّة. والتغيّرات التي تحدث نتيجة «علمنة الفرد» تُغيّر حتّى اتّجاهات علاقاته مع عالَم الوجود والطبيعة والمجتمع. ومن هذه التغييرات:

1. تغيير نظرة الفرد لعالَم الوجود نتيجة تنامي النزعة الدنيويّة.
2. تغيير علاقة الفرد بالطبيعة والسعي إلى مزيدٍ من السيطرة عليها، واستخدامها على أساس الدوافع المصلحيّة والنفعيّة وطلب اللّذة.
3. تغيير علاقات الفرد بالمجتمع وتوقّعاته من الآخرين، وبالتالي تنامي النزعة الفرديّة.

ويصاحب هذه التغييرات نمطٌ من الإعراض عن السماء، والخروج من تحت خيمة القدسيّة، الّذي يؤدّي إلى:

(1) انظر: محسني، «مدخل إلى العقلانيّة العلمانيّة»، م.س، ص67-71.

- **دَنْيَوَة الأفكار:** بأنْ يحصر الإنسان معرفته كلّها بهذا العالَم، ويغفل عن ما سواه؛ الأمر الّذي يؤدّي إلى استبدال المعرفة والوعي الدينيَّيْن تدريجيًّا بالمعارف التجريبيّة والعقلانيّة والذرائعيّة.
- **دَنْيَوَة الدوافع:** والمراد منها أنّ الأمور الدنيويّة تصبح هي المُحرِّك والدافع الوحيد لجميع أعمال الإنسان؛ وإنْ كان الإنسان متديّنًا، فهو قد يتّجه نحو الدين بسبب تأثيرات دنيويّة. إنّ الفكرة الرئيسة وراء دَنْيَوَة الدوافع والمُحفِّزات هي أنّ العقل الإنسانيّ قادرٌ على اكتشاف حُسْن الأفعال وقُبْحها، بحسب العقلانيّة العلمانيّة؛ فلا حاجة لدى الإنسان إلى أنْ تكون أعماله مُطابقةً لإرادة الله أم غير مطابقة.
- **علمنة الرؤية التي تؤدّي على المستوى الفرديّ** إلى:
  - الانتقال من محوريّة القيم إلى محورية المنفعة.
  - الانتقال من حبّ الناس إلى حبّ الذات.
  - الانتقال من طلب الحقّ إلى طلب المصلحة.
  - الانتقال من طلب السعادة إلى طلب السلامة والعافية.
  - الانتقال من طلب العدالة إلى طلب المنفعة.

خاتمة

إنّ الأمر الفِطريّ المزروع في أعماق أفراد النوع الإنسانيّ وطينتهم قاطبةً، هو الّذي يدعو الإنسان إلى الثورة على جميع أشكال الظلم والطغيان، كما يدعوه إلى طلب الكمال في الحرّيّة والعدالة والإرادة والعلم؛ وهذا هو حال ثورات الإنسانيّة قاطبة على مرّ التاريخ والحاضر، وما يأتي من أزمنة وأمكنة، ولكنّ ذلك لا يعني تطابق أهداف هذه الثورات من حيث المصاديق الخارجيّة.

ولذلك فإنّ جميع الثورات الإنسانيّة، بما فيها الثورة الحسينيّة، تجتمع

في مشتركاتٍ قائمة بينها بحكم الفِطرة التي فَطَرَ اللهُ الناس عليها، وهي المشتركات التي تفرضها الطبيعة التكوينيّة القهريّة بحكم الخِلقة والطينة الأولى، وهو ما أسمَيْناه المقام الأوّل في سياق المقالة؛ مقام ثبوت الشيء في ذاته.

ومضافًا إلى ذلك، تفترق هذه الثورات وتتمايز كلٌّ واحدةٍ منها عن الأخرى؛ بما تمتلك من خصوصيّات تفرضها طبيعة الإرادة الحرّة، والأُسس الفكريّة والثقافيّة لكلّ مجتمع، والقدرة على الاختيار في النفوس البشريّة، وهي المساحة التشريعيّة التي ألهمها الله للإنسان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ومن هذا المنطلق تتمايز الثورة الحسينيّة عن غيرها من الثورات الإنسانيّة؛ سواء منها الغربيّة أم غيرها، حيث يرتبط هذا التمايز ببعض الخصوصيّات التي أوردتُها في سياق المقالة: البُعد الإلهيّ، والبُعد الأخرويّ، والبُعد الجماعيّ؛ مقابل الذاتيّة والفردانيّة والأنانيّة؛ مع إمكانيّة استكشاف وجوه أخرى للتمايز في الثورة الحسينيّة؛ بما يخصّ البُعد الفِطريّ.

(1) سورة الكهف، الآية 7.
(2) سورة البقرة، الآية 256.